في الآداب الاجنبية

بستالتزى بين عقله وقلبه

بقلم محمد مهدى علام

المفتش بوزارة المعارف وعضو المكتب الفنى بها

هناك فى بر[1] مقبرة يقرأ عليها الانسان العبارة الآتية : « بين طيات هذا الثرى ينام هينرخ بستالتزى ، الذى ولد فى زوريخ فى الثانى عشر من يناير سنة ١٧٤٦ ، وتوفى فى برج فى السابع عشر من فبراير سنة ١٨٢٧ ، منقذ فقراء نيهوف ، واعظ الناس فى « لينارذ و جرترود » ، أبو اليتامى فى ستانز ، مؤسس المدارس الشعبية فى برجدورف و ميونخن — بكسى ، ومعلم الجنس البشرى فى فردون . رجل مسيحى ، وطنى ، لغيره كل ما يملك ؛ ولا يملك لنفسه شيئا . على اسمه الرحمة والرضوان . »

وإن كل كلمة من الكلمات السابقة لتحمل فى ثناياها كتابا من التاريخ . لا تاريخ بستالتزى العظيم وحده ، بل تاريخ البشرية المعذبة ، تاريخ الانسانية المضحية ، تاريخ الوطنية الصادقة ، تاريخ التقوى الراسخة — فى ألمانيا ، ثم فى أوربا ، ثم فى العالم .

وأنا لا أنوى أن أخرج هذه المقالة عن صورتها الأدبية إلى بحث علمى واف عن هذا المربى الألمانى العظيم ، فقد حاولت ذلك فى موضع آخر ، وربما نشرته فى عدد تال فى باب التربية ، ولكننى سأعرض هنا ناحية أو ناحيتين من حياة بستالتزى .

---

(١) Birr بالقرب من زوريخ .

بستالتزى بين قلبه وعقله :

ذهب بستالتزى وهو غلام صغير إلى حانوت تاجر من كبار التجار ليشترى لعبة تدخل على نفسه السرور، فقابل فى ذلك الحانوت بائعة صغيرة هى أنّاشُلتهِس (١) ابنة التاجر التى كانت أكبر من بستالتزى بسبع سنوات ، ولقد خذلته البائعة الصغيرة فى مسعاه، ونصحت إليه بالابقاء على دريهماته بدلا من ذلك الإسراف.

ولقد عقدت هذه الحادثة رباط الصداقة بين الشخصين الصغيرين ، وكانت صداقة أثمرت خطبة فزواجا .

وذهب بستالتزى وهو فتى ناشىء إلى ضواحى برن لدراسة الفلاحة ، وكان فى تلك المدة على اتصال بريدى بخطيبته أنّا ، غير أن تلك الرسائل التى تبودلت بين هذين القلبين - أستغفر الله ، بين هذين العقلين - لم تكن من صنف رسائل الحب التى نعرفها بين عشيق وعشيقته ، أو خطيب وخطيبته .

وإنى لناقل هنا ترجمة رسالة من هذه الرسائل التى تصف وصفا دقيقا فيلسوفنا فى حياته الخاصة والعامة . قال المحب الفيلسوف :

« عزيزتى

« إن أهم ما يبدو لى من أخطائى التى لها علاقة بما يحتمل أن أقوم به من الأعمال فى المستقبل ، هو عدم توفيق ، وقلة حيطتى ، وفقرى فى حضور الذهن وسرعة البديهة التى أحتاج إليها فى الأحوال التى تطرأ فى عملى .

« أما عن إهمالى القطيع فى الآداب التقليدية ، وفى كل الأمور التى ليست فى الحقيقة هامة فى ذاتها ، فأنا فى غنى عن الإفاضة ؛ فكل امرىء يستطيع أن يرى ذلك فىّ لأول نظرة .

« وعلىّ أن أصارحك ، يا حبيبتى ، بهذا الاعتراف أيضا : وهو أنى سأعد دائما واجباتى إزاء شريكتى المحبوبة ثانوية بالقياس إلى واجباتى نحو وطنى المقدس ، وعلى أننى سأكون أرق الأزواج وأشفقهم ، لن تشفع عندى دموع زوجتى إذا

(١) Anna Schulthess

هي أمطرتها بين يدى لتحول بها بيني وبين الشروع في واجباتي التي يقتضيها الوطن مني — مهما كانت النتائج المترتبة على ذلك .

« ألا إن زوجتي ستكون مقرا لثقتي ، وشريكة في أقدس سر وأغلى نصيحة : ولسوف تسود منزلي البساطة البريئة .

« وشيئا آخر لا بد أن أزيحه عن صدري : وهو أنه لن تمر حياتي من غير أن تحدث فيها حوادث جسام ، وأمور عظام ، فان أول ما عقدت عليه عزيمتي هو أن أفني في سبيل أمتي . ولن يعقد لساني خوف من إنسان . إذا علمت أن الخير لأمتي في أن ينطلق لساني ، فما نفسي إلا ملك لوطني . وسأغامر ما شاءت المغامرة في سبيل العمل على رفاهية أبنائه . يا لهول النتائج التي تترتب على الأعمال التي أشعر بنار الحمية تلهبني للقيام بها ! وما أصغرني إزاءها ! وما أقوى شعوري بأن واجبي هو أن أشرح لك احتمال وقوعي في المعاطب من جراء ذلك !

« عزيزتي ، صديقتي المحبوبة ، لقد صارحتك الآن بخلالي وآمالي ، فلتتدبري كل شيء ، وإذا كان من شأن الصفات التي ألفيت من واجبي أن أصارحك بها أن تنقص من احترامك إياي ، فإنك من غير شك ستقدرين إخلاصي . ولن يقلل من تقديرك إياي أنني لم أستغل جهلك بصفاتي الطموح ، التي ترمي إلى تحقيق أبعد رغبة من رغباتي . »

ولقد خفق لذلك النداء السامي قلب لا يقل عنه سموا ، ولا وطنية ، ولا تضحية . فلقد أجابته ليلاه بقولها : « مثل تلك الأخلاق الرفيعة تصل إلى أعماق قلبي . »

وهكذا قامت معه بعمله ، واحتملت معه تبعة إقدامه ، من غير أن تتحرك شفتاها بكلمة ضجر أو تبرم ، طوال حياة زوجية دامت ستة وأربعين عاما ، كانت فيها أمًّا زوجةً وفيةً لبستالتزى . وأمًّا رءوما ، لا لأولاده فقط ، بل لتلاميذه البائسين الذين كان يجمعهم من الأزقة والشوارع ليعلمهم ، ومصرفا ماليا لا يطالب ضمانة لشيء مما تتطلب مشروعات زوجها من نفقات .

العقيدة الراسخة :

لعل أظهر صفة فى حياة بستالتزى هى الثبات على المكاره فى سبيل العقيدة ، فقد كافح فى سبيل تربية الفقراء كفاحا مجيدا ، بذل فى سبيله ذات نفسه وذات يده، ولقد كان الإخفاق يختم كثيرا من أعماله ، ولكنه كان لا يخرج من إخفاق إلا إلى ميدان جديد للجهاد ، حتى كتب الله له النصر والسداد . وما أبلغ ما يقوله مشليت فى تلك البطولة النادرة : « إن كان فى الدنيا معجزة ، فثمة كانت المعجزة ، مكافأة على عقيدة راسخة ، وقلب جرىء : لقد اعتقد فأراد فنجح . »

ولا عجب فقد كان حاله مع تلاميذه كما وصف هو : « كنت ألازم الأطفال من فلق الصبح إلى غسق الليل ، وما ألوت جهداً فى إنماء أجسامهم وعقولهم ، وما ركنت إلى غير نفسى فى تثقيف عقولهم ، وتهذيب نفوسهم . لقد كانت يدى فى كل عمل إلى أيديهم ، وابتساماتى تصحب دائما ابتساماتهم ، لقد كان طعامنا وشرابنا قسما سوياً بيننا ، وكنا نمشى جميعا فى الحقول والمزارع لاستنشاق الهواء ، ولم يكن حولى هنالك أسرة ولا خلان ولا خدم ، فاتخذت من الأطفال أسرتى وخلانى ، لقد كنت أشعر بالصحة والسعادة ما داموا فى صحة وسعادة ، وكنت طبيبهم وممرضهم إذا مرضوا . كانوا إذا ناموا نمت بينهم ، وكنت آخر من ينام ، وأول من يستيقظ . . . . . »

إن فى ذلك لعبرة لأولى الألباب . هذه هى حياة البطولة ، حياة المجد ، حياة العبقرية ، حياة العقيدة الراسخة لا الهوى المتقلب . ولقد تعجب أن كوفىء على هذا الجهد المضنى ، والتضحية المنقطعة النظير بالإخفاق فى مشروعه ، وبالجحود من تلاميذه ، وبنكران الجميل من آبائهم وأمهاتهم ، ولكنه كعادته لم ينقض يده من عمل إلا إلى عمل . وإليكم ما يقوله عن نفسه فى كتاب أرسله إلى صديق له فى سنة ١٨٠٠ .

« لقد قطعت ثلاثين عاما أصارع الفاقة المروعة ، وأكاد لا أجد لى فى الانتصار عليها أملا . . . . لقد قطعت ثلاثين عاما اضطررت فى خلالها إلى التخلى عن كثير من أقل ضرورات الحياة ، ولقد حجبنى عن مخالطة رفقائى رثاثة ملابسى ،

وكم ليلة قضيتها من غير عشاء ، آكلا فى حزن ويأس كسرة خبز جافة على قارعة الطريق ، فى وقت كان فيه أشد الناس فاقة يجلسون حول مائدة ! لقد احتملت كل ذلك ، وما زلت حتى اليوم أحتمله لغير غرض سوى تحقيق مشروعاتى فى مساعدة الفقراء . .

حب تلاميذه له :

ولعل أدق وصف لبستا لتزى هو ما كتبه عنه أحد تلاميذه فى معهد فردون ، وقد صار تلميذه هذا أستاذا ، قال يحدث تلاميذه :

« تصوروا يا بنى رجلا دميما ، ذا شعر شائك ، ووجه قد شوهه الجدرى ، وغطى أديمه الكلف ، لحيته شعثاء ، وليس له رباط رقبة ، سراويله لم تزر أزرارها بإحكام ، ولذلك تراها قد هبطت إلى جواربه ، وجواربه قد تخلت لها عن مكانها نازلة فوق نعليه الكبيرتين الغليظتين - تصوروا هذا الرجل يلهث ويهتز إذ يمشى ، تصوروا عينيه يفتحهما تارة فترسلان شعاعا من النور ، وآونة يكاد يغمضهما كما لو كان مشتغلا بما يدور فى خلده ، أما أسارير وجهه فتارة تنطق بحزن عميق ، وآونة ينبعث منها الرضا والسعادة ؛ وأما حديثه فطورا بطىء ، وطورا سريع ، وآنا هادىء موسيق ، وآنا آخر صاخب كأنه هزيم الرعد . تصوروا هذه الصورة ، فهى صورة هذا الرجل الذى كنا ندعوه (أبانا بستا لتزى) وعلى هذه الصورة التى رسمتها لكم ، كنا نحبه ، لقد أحببناه جميعا لأنه كان يحبنا جميعا ، بل لقد بلغ من حبنا إياه أنه كان إذا مرت بنا ساعة لم نره فيها جزعنا من أجله فاذا ما ظهر بيننا لم نستطع أن نحول أنظارنا عنه » .

مهدى علام